مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع عشر، العدد الخامس، ١٩٩٩.

تطور صوت الجيم في اللغة العربية وأثره في تشكيل بنية الكلمة

يحيى عبابنة

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، الأردن

ملخص

تعرض صوت الجيم خلال تاريخ اللغة العربية الطويل ، لعدد من التغيرات التاريخية الصوتية التي نقلته أولاً من الصورة المفردة (g) إلى الصورة المركبة (g) التي نراها الآن، وذلك بعد أن تأثر بقانون الأصوات الحنكية، ومن ثم عملت قوانين التطور اللغوي على فك هذا الصوت إلى مكونية، وهما الدال والشين المجهورة، مما أدى إلى اتساع المعجم العربي وتزويده بكلمات قد تكون بالجيم، والدال، والشين.

كما أن قرب صفته في حال الإفراد من صوت القاف المجهورة أدى هو الآخر إلى اختلاطه بكلمات تحتوي على القاف، ومثل هذا يقال أيضاً عن قرب مخرجه في حالة التركيب من صوت الياء. وقد قدمت هذه الدراسة تعريفاً بهذه الآثار التي أدت إلى تنوع بنية الكلمة في هذا المجال.

Abstract

Throughout the long history of Arabic, the sound [g] has gone thorugh many historical changes that have shifted it from the single image [g] to the compound image [g] that we see today. This sound has been influenced by some sound rules, then, the linguistic development rules have deconstrcted this sound into its components: the "d" and the spoken "s" This has led to the enlargement of the Arabic lexicography providing it with entries with "g" "d" and "s".

Moreover, the sound's similarity when single to the sopken "k" has also led to its blending with words that contain the "k" This is also ture about its place of articulation which is similar to the "y" sound, when compound. This study defines the effects that have led to the various structures of the

تقديم:

وصف سيبويه الجيم التي ننطقها في الاستعمال اللغوي المعياري (الفصيح) للغة العربية بأنّها صوت من الأصوات المجهورة الشديدة(١). وقد اتّخذ سيبويه في هذا التعريف معياراً صوتياً يتمثّل في الذوق اللغوي؛ لأنّ الصوت الشديد عنده هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه، حتّى إذا نطقت بالصوت لم يمكنك أن تمدّه إلى الحدّ الذي تريد(٢).

وأمّا ما يمكن أن يقال في هذا الشأن عند المحدثين، فهو أنّ صوت الجيم، صوت مركّب Affricated وقد وصفه كمال بشر بأنّه صوت لثوي حنكيّ مركّب، وصفة التركيب تعني أنّه انفجاري احتكاكي(٣).

والحقيقة أنّه لا أحد يمكنه الاعتراض على وصف صوت الجيم عند القدامى أو المحدثين، فقد وصفوه وصفاً صحيحاً، ولكننا نودُّ في هذه الدراسة أن نشير إلى موضوع يتعلّق بالتطور الصوتي لهذا الصوت بالنظر إلى الاستعمال اللغويّ الفعلي، كما ترويه كتب التراث والمعاجم اللغوية التي نقلت لنا كثيراً من الصور الاستعمالية التي لا بدّ من تعليلها.

وقد انطلقت هذا الدراسة في سبيل تعليل وجود هذه الأشكال الصوتية من أنّ الأصل في نطق هذا الصوت لا يشتمل على صفة التركيب المشار إليها، وإنّما هو صوت مفردٌ خالٍ من التعطيش، وهي نتيجة أشار إليها كثير من الدارسين المعاصرين، وقد حاولت الدراسة تأييدها بما هو وارد في مكانه.

وتأتي هذه الدراسة لتفسير كثير من التحوّلات التي طرأت على هذا الصوت، وقد قسمتها إلى الأقسام الآتية:

١- قانون الأصوات الحنكية وأثره في تشكيل صفات الجيم.

٢- قضية انحلال الصوت المركب.

- انحلال الجيم إلى الدال.

- انحلال الجيم إلى الشين.

٣- تطوّر الجيم إلى الياء والعكس.

٤- التداخل في الصفات بين الجيم المفردة والقاف المجهورة.

قانون الأصوات الحنكيّة ودوره في تشكيل صفات الجيم

صوت الجيم كما بيّنا مركّب في استعماله الفصيح، ومن اليسير أن يتبادر إلى الذهن، أنّ الأصوات المركّبة قد وجدَتْ في مرحلة تالية على الأصوات المفردة، وهذا ما يؤدي إليه الحسّ اللغوي، وإن كان هذا الحسّ لا يكفي لإصدار حكم علمي مقنع تماماً، ولهذا، فلا بدّ من وجود أدلّة لغوية بحتة، تؤيد هذا الحسّ اللغوي، حتّى يصبح الحكم أمراً يُطْمأنُّ إليه.

وأوّل هذه الأدلّة أنّ اللغات السامية بصورة مجملة لا تجد فيها صوت الجيم المركّب، إلا في تلك الكلمات المستعارة من لغات أخرى، وأمّا الكلمات الساميّة الأصيلة، فإنّ نطقها لا يكون إلا بالجيم الخالية من التعطيش، ومثال ذلك من اللغة الجعزية (الإثيوبية) الكلمات الآتية:

(hager) بمعنى قرية أو بلدة (هجر)(٤)، ومنها كلمة (gamus) بمعنى (جاموس)(٥) و (gundan) بمعنى مورد ماء أو عنكبوت(٦)، و (gannat) بمعنى (جنة)(٧) و(rigs) بمعنى رجس أو نجاسة (٨)، ومنها أيضاً كلمة (masgid) بمعنى (مسجد)(٩)، وكلّها تنطق نطقاً خالياً من التعطيش.

وأما في العبرية، فنجد الكلمات الآتية، على سبيل المثال لا الحصر: (garam) بمعنى قضم و (garaf) (١٠) ، بمعنى (جرف)، و (regel) بمعنى (رجْل)(١١) و (gadol) بمعنى عظيم و(gadal) بمعنى (عَظُمَ)(١٢)، و(gad) بمعنى (جدّ) أو (حَظّ)(١٣)، وهي أيضاً مما ينطق بالجيم الخالية من التعطيش.

وأمّا من اللغة السريانية، فنورد الأمثلة الآتية: (gaddal)، بمعنى جدل ونسج(١٤) و(geba)، بمعنى (جبى) من جباية الضريبة(١٥) (gabra)، بمعنى رجل أو جبر(١٦) و (gurba) بمعنى جورب(١٧)، وغيرها مما يحتوي على صوت الجيم أصلاً من أصولها غير مستعار من غيرها من اللغات الأخرى.

كما أنّ هذا النطق لم يختلف عن هذا الشكل الصوتي في اللغة الأكادية، حيث نجد فيها مثلاً كلمة (gamaru) بمعنى (أثمَ) أو (أنْهى)(١٨) و (migru) بمعنى (اتّفاق) أو (رضا)(١٩)، و (ragamu) بمعنى (دعا) أو (صرخ)(٢٠) وغيرها كثير أيضاً.

والإشكال الذي يكمن هنا هو: ما هو المسوّغ الذي يجيز لنا أن نحمل العربية على اللغات السامية في هذه القضية؟ وبكلمة أخرى: لماذا لا يكون ما في العربية أصلاً قائماً بذاته، لا يقاس على غيره مما

في اللغات السامية من ظواهر صوتية، على الرغم من التقارب القوي بين العربية وهذه اللغات؟(٢١).

وللإجابة عن هذا التساؤل، فإننا نقول زيادة على ما سيأتي من حديث عن هذا الموضوع، إنّه من البداهة أنْ نحتكم إلى الكثرة أولاً، فمن السهل أن نعلّل كيف تغيّرت واحدة من اللغات إلى صورة ما من الصور الاستعمالية، في حين أنّه من الصعب أنْ نعمد إلى تعليل صورة صوتيّة انتقلت إلى صورة أخرى في عدد من اللغات، فالكثرة أصل لا يستهان به هنا.

وأمّا الدليل الذي نستند إليه في عدّ النطق الإفرادي الخالي من التعطيش أصلاً، فهو وجود هذا النطق في بعض المتحجّرات اللغوية، ونعني بالمتحجّرات اللغوية هنا، أنّ الظاهرة اللغوية عندما يصيبها التطوّر أو تموت أو تتغيّر لأيّ سبب من الأسباب، فإنّ هذا التطوّر أو الموت لا يكون نهائياً في جميع جزئيات الظاهرة اللغوية، بل لا بدّ من أن يبقى ما يدلّ على أنّ الظاهرة كانت موجودة ومستعملة في يوم من الأيام. وهو بعض الأوجه الاستعمالية التي تسرّبت إلى المستوى الجديد واستطاعت أن تفلت من فعل قوانين التطوّر اللغوي التي فعلت فعلها في اللغة.

ولعلّ الفائدة الكبرى من وجود هذه المتحجّرات اللغوية، هي أنّها تساعدنا في عملية التأريخ للغة وظواهرها المختلفة، ومن ذلك ما نحن بصدده من الحديث عن الأصل في نطق الجيم هو الإفراد أو الصورة الصوتية المفردة الخالية من التعطيش.

وقد حفظت لنا المعاجم اللغوية بعض هذه الأمثلة، فمنها ما رواه لنا ابن الأثير من الحديث النبوي الشريف المعروف بحديث الاستنجاء، فعندما طرح موضوع الاستنجاء بالروث قال : إنّه ركس(٢٢)، ولا نعتقد أنّ هذا اللفظ المرويّ هنا بعيد عن النطق بالجيم على هيئة ما يسمّى بالجيم القاهرية الخالية من التعطيش، إذ إنّه من المرجّح أن يكون الرسول صلّى الله عليه وسلّم نطقها (rigs)، ولكن لّما لم يكن في المعيار الصوتي للغة الفصحى صورة لهذا الصوت، فقد قرّبوه من الكاف، ولا غرابة في هذا التقريب ألبتة، فالقاف والكاف تشتركان معاً في المخرج نفسه، (وفقاً للصورة الصوتية المجهورة التي وصفها سيبويه).

كما قرأ بعض القرّاء قوله تعالى: (حتّى يلجَ الجمل في سم الخياط) بالصورة الإفرادية، أي: (yaliga)، و (gamalu)(٢٣).

والحقيقة التي أودّ الإشارة إليها هنا، هي أنّ الأمثلة على هذا الأمر ليست قليلة في المعجم العربي، بل هي كثيرة، نذكر منها مثلاً ما جاء في حديث حذيفة في موضوع المسيح الدّجّال: " نعتَ لنا

المسيح الدَّجَّال، وهو رجلٌ عريضُ الكبهة، أراد: (الجبهة)، وأخرج الجيم بين مخرجها ومخرج الكاف" (٢٤).

ومنها أيضاً " الجبولاء، وهي العصيدة، وهي التي تقول لها العامّة الكبولاء" (٢٥)، وهو مثالٌ أورده المعجم من الاستعمال العامّي في وقت تدوين هذه الكلمة في لسان العرب، وأغلب الاعتقاد أنّها كانت تلفظ بالجيم المفردة الخالية من التعطيش، أي: (gabula<)، ومنها أيضاً: الكُفُرَّى والجُفُرى، (gufurra) و (gufurra)(٢٦).

كما نقول أيضاً: خطيب مُسْهِجٌ ومُسْهِكٌ، وريح سيهوجٌ وسيهوكٌ وسيهكٌ، والسَّهكُ والسَّهجُ: مرُّ الريح، وقد ذكر بعض أصحاب المعاجم والمهتمّين باللسان العربي، أنّ الجيم في هذه الأمثلة، بدلٌ من كاف (سيْهك) و (سيْهوك)، وهو وعاء الطلع(٢٧).

والحقيقة التي أعتقد أنّها أكثر جلاء، هي أنّ هذه الكاف هي صورة عن النطق الأصلي القديم التي نعتقدها لنطق الجيم، وهي الصورة الإفرادية غير المركّبة.

ومن الأمثلة على هذا النطق أيضاً، ما جاء في كلمة (العُثَلط)، وهو اللبن الخاثر، فقد رُوِيَتْ صور استعمالية مختلفة لهذا النمط اللغوي القديم، بعضها يمكنَ أن يفضي إلى ما نتصوره من أصل لنطق الجيم القديمة، إذْ رُوِيَ عن الأصمعي أنّه سمع (عُثَلط) و (عُجَلط) و (عُكَلط) وجميع هذه الأوجه الاستعمالية تفضي إلى دلالة واحدة وهي اللبن الثخين الخاثر، وهو أمرٌ أيّده أبو عمرو بن العلاء وابن برّي كما يذكر ابن منظور(٢٨).

ونورد مثالاً آخر على هذا الذي نعدّه تسرُّباً من الصورة النطقية القديمة لصوت الجيم، وذلك من المرحلة التي سبقت اتّخاذ اللغة الفصحى الصورة المركّبة لنطق الجيم شعاراً لها، وهي كلمة (الأهوج) التي روت المعاجم صورة أخرى لها بالكاف، أي: الأهوك، وهذه الصروة الاستعمالية تعني المعنى نفسه الذي تعنيه الصورة الأخرى، فقد ذكرت المعاجم أن الأهوك والأهوج واحد، وأنّ الهوكَ كالهوجِ: الحمق(٢٩).

وعلى هذا يمكن القول إنّ صورة النطق التي رُوِيَتْ بالكاف قد يكون الذي حدث فيها أحدَ أمرين:

١- أنّ النطق الذي سمع عن العرب إنّما كان بالجيم المفردة، وقد حدث أنّ النظام الكتابي العربي لم يكن وضع رمزاً للجيم المفردة الخالية من التعطيش، (g)، فرُسِمَتْ على هيئة الكاف، وهو أمر ممكن الحدوث.

٢- وقد يكون الناطقون قد أحسُّوا بتغيّر صورة نطق الجيم، وأنّها صارت صوتاً مزدوجاً، فغيَّروا الصورة النطقية إلى هذه الصورة، أي: (g)، ولكنّهم لم يميّزوا في بعض الاستعمالات اللغوية بين نطق الجيم المفردة (g)، والكاف (k)، لشدّة التقارب بين مخرجيهما، وصفاتهما، فهما من الأصوات الأقصى حنكية (٣٠)، فقرّبوا هذه الجيمات من الكاف كما في الأمثلة السابقة الذكر.

والذي يشهد على ذلك، اشتراكهما في المعنى، فهما يفضيان إلى الدلالة نفسها، وإن لم يتساويا غالباً في النظرة إلى فصاحتهما، فقد عدّ سيبويه الصورة الصوتية المفردة في بعض هذه الأنماط من الأصوات غير المستحسنة (٣١)، وأعتقد أنه يذهب في هذا التصنيف إلى مقارنتها بالمعيار الفصيح لهذا الصوت، وليس بالمعيار الاستعمالي، فهو على وعيٍ تامّ بأنّ هذه الأنماط مستعملة في بيئاتها.

كما يمكن أن نستدلَّ على أصالة صوت الجيم في صورته غير المركّبة، بما نسمعه اليوم من بعض أشكال الاستعمال اللغوي في بعض مناطق العالم العربي، كالجيم القاهرية، وبعض مناطق اليمن وعُمان.

وعلى هذا، فإنّه يمكن القول إنّ اللغة العربية في فترة من فترات عمرها، وصلت إلى أن تغيّر صوت الجيم الخالية من التعطيش، إلى صوت مركّب يتكوّن من الدال اللثوية الأسنانية، وينتهي بالشين المجهورة ( ).

ولكن هذا الأمر لم يحدث بصورة عشوائية، ولهذا، فلا بدّ من طرح تساؤل آخر في هذا الصدد، وهو: لماذا تحوّل صوت الجيم (g) المفردة إلى صوت الجيم (g) المركبة؟

لقد توصّل علماء اللغة إلى أنّ هذا التحوُّلَ ناتج عن قانون أطلقوا عليه مصطلح (قانون الأصوات الحنكية)، فقد وصلوا في " مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين الإغريقية واللاتينية في أواخر القرن التاسع عشر، إلى قانون سمّوه قانون الأصوات الحنكية"(٣٢) وهو ما أطلق عليه ماريو پاي مصطلح التغوير (palatalization)، وهو يعني به نقل مخرج الصوت إلى منطقة الحنك الصلب، أو الغار، كما في الكلمة اللاتينية (centum)، التي تنطق بصوت طبقي (حنكي ليّن) مثل نطق الحرف (k)، ولكنّها انتقلت إلى الإيطالية: (cento)، بصوت غاريّ يماثل ما في نطق كلمة (church) (٣٣).

وأمّا أثر قانون الأصوات الحنكية في الأصوات التي يكون مخرجها من منطقة أقصى الحنك، فإنّه يتمثّل في أنّ هذه الأصوات إذا جاءت متلوّة بحركة أمامية كالكسرة القصيرة والطويلة، سواء كانت خالصة أو ممالة، فإنّ هذه الكسرة تجتذبها إلى الأمام قليلاً، فتنقلب إلى مخرج آخر، غالباً ما يكون وسط الحنك، ويغلب أن تكون الأصوات الجديدة مزدوجة، أي تجمع بين الشدّة والرخاوة(٣٤).

وفي العربية صوتان مخرجهما أقصى الحنك، وهما الجيم المفردة القديمة (g) والكاف (k)، ويبدو أنَّ الفرق بينهما ليس في صفة النطق أو المخرج، وإنما في الجهر والهمس، إذ إن الجيم (g) صوت مجهور، في حين أن الكاف (k) صوت مهموس.

وفي البداية تدخّل قانون الأصوات الحنكية المشار إليه في الجيم المكسورة والكاف المكسورة على النحو الآتي:

gi gi

ge ge

وكذلك الحال بالنسبة للكسرات الطويلة:

gi gi

ge ge

وبعد هذا التأثير المباشر تشكّل في العربية صورتان صوتيتان للجيم المكسورة، وهما الصورة القديمة في الأصوات غير المكسورة (g: gu, gu, ga, ga) والصورة المركبة الجديدة في الأحوال السابقة.

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ تعدّد الصيغ ليس مما تحبّذه اللغة، ولهذا، فإنها ستلجأ في سبيل توحيد علاماتها إلى تعميم أثر القانون على تلك الجيمات التي لا تكون مكسورة، قياساً عليها، فتغيّرها إلى الصورة الجديدة طرداً للباب على وتيرة واحدة.

gi gi

ge ge الخاضعة للقانون

ga ga

gu gu غير الخاضعة للقانون

g: g:

وبهذا، فإنَّ صورة صوت الجيم المفردة (g) قد ضاعت من النظام الصوتي للمعيار الفصيح، وإن ظلتْ موجودةً في بعض اللهجات القديمة والحديثة، زيادة على أصالتها، وربما تفردها في اللغات السامية الأخرى في أغلب الصورة الاستعمالية للجيم.

وما قيل عن تأثير هذا القانون في الجيم ، يمكن أن يقال عن تأثيره في صوت الكاف، والفرق بينهما أن الصوت الجديد الناتج في الحالة الأولى، قد اتخذته الفصحى شعاراً لها ومكوناً أساسياً من مكونات النظام الصوتي في معيار اللغة الفصيح، وهو إبدال مطلق، وأما الصوت الجديد الناتج عن تدخل هذا القانون في الكاف، فقد اقتصر أثره على الإبدال الصوتي التاريخي المقيد في بعض اللهجات العربية القديمة والحديثة، فيما يعرف بظاهرتي الكشكشة والكسكسة، وليس هذا هو المكان المناسب للحديث عن صور الكاف، وإنما ذكرناه لتوضيح الفرق بين عمل القانون في كلّ من الصوتين.

انحلال الصوت المركب:

لقد انتقل صوت الجيم إلى صورته المركَّبة بفعل تدخُّل القانون السابق، وهذا التدخل اختياري وليس إلزامياً، فقد رأينا أنّ تأثيره كان محدوداً في صوت الكاف، إذ اقتصر على بعض السياقات في بعض المواضع، وأما في صوت الجيم، فقد كان أثره مطلقاً في جميع السياقات اللغوية الفصيحة، مما دفع بسيبويه إلى وصف الجيم المفردة بأنها من الأصوات غير المستحسنة.

ومع هذا التحوّل الاختياري فيه، فإنه يمكن القول إن صوت الجيم المركب لا يعدّ من الأصوات السهلة، بل هو صوت يقتضي من الناطقين النطق بصوتين مختلفين في آن واحد، وهما صوت الدال اللثوية الأسنانية المجهورة وصوت الشين المجهورة، (وهو صوت غير مستحسن في المعيار الفصيح من وجهة النظر المعيارية) بما يناسب صفة الجهر الموجودة في صوت الجيم المفرد الخالي من التعطيش، وهذه الصعوبة المتأتية عن الازدواج، مدعاة إلى تدخُّل قانون السهولة والتيسير، وهو قانون عامٌّ له كثير من الآثار التي أشار إليها الدارسون في سقوط الهمزة والأصوات بين الأسنانية، وأدّى إلى التخلص من صوت الضاد القديمة التي نراها في وصف سيبويه، وتخفيف التفخيم في بعض الأصوات المفخمة، وإن كانوا لم يشيروا إلى تدخل هذا القانون في هذه الظاهرة، إذ من الممكن أن يتدخَّلَ عن طريق ما يمكن أن يسمى تفكيك الصوت المزدوج أو انحلال الصوت المركّب، وهو قانون غير إلزامي أيضا، من الممكن أن يتدخّل، ومن الممكن أن لا يتدخّل أيضاً، وقد لاحظنا هذا من خلال الأمثلة التي رويت عن انحلال الجيم المركبة، وهي أمثلة استعمالية لا نستطيع أنْ نصفها بالكثرة، بل كانت محدودة ومقيدة.

وإذا كانت الجيم المركبة الحادثة مكوّنة من صوتين مختلفين وهما الدال والشين المجهورة، فإننا نتوقع أن ينحلّ الصوت المركب إليهما، إذ ستنطق بعض الاستعمالات اللغوية المحتوية في بنيتها

العميقة على صوت الجيم المركبة بأحد مكوني الصوت، أي أن البنية العميقة ستكون مركبة، في حين ستكون البنية السطحية (الاستعمال النهائي) بالدال أو بالشين المجهورة، والدليل على هذا الذي نقول الأمثلة الآتية:

١-ما جاء بالدال والجيم

استعمل الناطقون بالمعيار اللغوي الذي يعتدُّ به في معيار الفصاحة الأنماط الآتية في صورتين صوتيتين:

-جاء في لسان العرب: «الإِجْلُ: وجع في العنق، ابن الأعرابي: هو الإِجْلُ والإِدْلُ، وهو وجع في العنق عن تعادي الوسادة»(٣٥).

-وجاء فيه أيضاً: «الدّشُّ: اتخاذ الدشيشة، وهي لغة في الجشيشة... وفي الحديث: روي عن أبي الوليد بن طخفة: كان أبي من أصحاب الصُّفَّة وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام يأمر الرّجل يأخذ بيد الرجلين، حتى بقيت خامس خمسة، فقال: انطلقوا فانطلقنا معه إلى بيت عائشةَ، فقال: يا عائشةُ: أطعمينا، فجاءت بدشيشة فأكلنا»(٣٦) ولم أعثر على هذا الحديث في النهاية، بل جاء الاستعمال فيها بالجيم في حديث آخر(٣٧) وقد عدّها الأزهري لُكْنَةً، ولم يعترف بها لغة(٣٨).

-وجاء في كتب لحن العامة أن (دَشَّيْتُ) نمط مستعمل في مكان (جشأت) لهواء يخرج من الفم عند الامتلاء(٣٩)، وهذه الكلمة وأمثالها في كتب لحن العامة مما يخضع لانحلال الصوت المركب، وهو ما نجده الآن في بعض الاستعمالات العامية في بعض مناطق الوطن العربي، إذ يقولون: "دشّي الطفل"، وهو أن تطلب المرأة من أخرى أن تقوم بدق الطفل بين كتفيه دقّاً لطيفاً لإخراج الهواء الذي يمكن أن يكون تجمع في معدة الطفل بعد عملية الرضاعة.

- وجاء في لسان العرب أيضاً أنّ "الدّعظاية كثير اللحم، أو القصير في رأي ابن السّكّيت، ويقال فيه أيضاً الجعظاية"(٤٠)، وأغلب الظن هنا أنَّ الأصل هو الجيم، وأنه انحلّ إلى أحد مكونيه في لهجة من اللهجات، فقالوا (الدعظاية) في مكان (الجعظاية)؛ لأنه مستعمل في باب الجيم أيضاً(٤١).

- وجاء أيضاً أنه يقال للرجل الجافي العزيز النفس: "عَيْدَهية، وعُنْدُهية وعنجهية، كل ذلك إذا كان في جفاء"(٤٢).

والأغلب أيضاً أن تكون الجيم المركبة هي الأصل، وأنها تعرضت إلى ما أطلقنا عليه انحلال

الصوت المزدوج (المركب) فنطقها بعض العرب بالجيم المركبة وآخرون بالدال، مما أدّى إلى نشوء نمطين لغويين بمعنى واحد.

وقد أشار الدكتور رمضان عبدالتواب إلى هذه الظاهرة، وأثرها في اللهجة المصرية في الصعيد، فقال: «ومن التغييرات التاريخية لهذا الصوت، انحلاله إلى أحد عنصريه المكوِّنين له في اللهجات العربية الحديثة، إذ ينطق كالدال في صعيد مصر، فترى أهالي مدينة (جرجا) مثلاً يسمّون مدينتهم (دردا) كما يقولون: (دمل) و (داموسة) في: (جمل) و (جاموسة) وغير ذلك(٤٣).

٢- ما جاء بالجيم والشين:

ما أودّ أن أشير إليه أولاً هو أن الشين المهموسة التي ترويها المعاجم العربية في بعض الأنماط اللغوية الاستعمالية ليست من مكونات صوت الجيم، وإنما هي الشين المجهورة التي وصفها سيبويه بأنها الجيم التي كالشين، وهي من الأصوات غير المستحسنة عنده(٤٤) وهي صوت لثوي حنكي، كالشين المهموسة(٤٥)، والفرق بينهما في الجهر والهمس فقط، ومن الممكن أن يطلق عليها الجيم المشبعة(٤٦).

وعلى هذا، فإننا لا نتوقع أن تنحلَّ الجيم المركبة إلى الشين، ذلك أن الشين مهموسة والجيم مجهورة، والأصل أن تنحلّ إلى الصوت السابق الذي عدّه سيبويه من الأصوات غير المستحسنة؛ لخروجها على النظام الصوتي للعربية الفصحى، وهو ما حدث في اللهجات الحديثة، كالصوت الذي ينطق به بعض أبناء المغرب العربي، ومدينة دمشق، ونابلس، وغيرها من المدن الحضرية في بلاد الشام، لكن الذي حدث في اللغة العربية، أن الناطقين الذي أوصلوا الجيم المركبة إلى هذا الأمر، قد نطقوا الجيم شيناً مجهورة، ولكنها رويت عنهم وصفاً بأنها الجيم التي كالشين، وكتبت شيناً، ثُمَّ أصبح الأمر كما لو أنه حدث إبدال صوتي تاريخي بين الجيم المركبة والشين المهموسة، وأوردت المعاجم بعض الأنماط على هذا الإبدال منها:

- يقال: "دَمَجَ الأمر يَدْمُجُ دُمُوجاً: استقام، وأَمْرٌ دُماج ودماج: مستقيم، وأدْمَجَ الحبلَ: أجاد فتله، وقيل: أحكم فتلَهُ في رِقَّةٍ، ومُدْمش بهذا المعنى، فأبدل الشين من الجيم"، قال الشاعر:

إذْ ذاك إذْ حَبْلُ الوصال مُدْمَش(٤٧)

- جاء في الحديث النبوي الشريف أن رجلاً قال لبعيره: "شأ لعنك الله، فنهاه النبيﷺ عن لعنه"(٤٨)، وشأ: زجر، وبعض العرب يقول جأ بالجيم، وهما لغتان(٤٩).

- وجاء في لسان العرب: «مكانٌ شَئِسٌ: وهو الخشن من الحجارة، قال: وقد يخفف فيقال للمكان الغليظ، شَأْسٌ وشأز، ويقال مقلوباً: مكان شاسئ وجاسىء: غليظ»(٥٠)، مما أدى إلى نشوء كلمتين بمعنى واحد، وهما شاسئ وجاسىء، ويبدو الأمر كما لو كان انحلالاً للصوت المركب (ج).

- ويقال في اللغة: «حنشه عن الأمر يحنشه، بمعنى: عطفه، وهو بمعنى طرده، وقيل عَنَجَهُ، فأبدلت العين حاءً والجيم شيناً»(٥١).

تطور الجيم إلى الياء والعكس

تتّحد الجيم المركبة والياء في المخرج، فمخرجهما هو الغار أو سقف الحنك الصلب، كما أنهما يشتركان في صفة الجهر، أي: تهتزُّ الأوتار الصوتية في أثناء النطق بهما، ولعلَّ ما يختلفان فيه، يكمن فقط في أنَّ الجيم المركبة من الأصوات التي تجمع بين الشدة والرخاوة، أي بين الانفجار والاحتكاك، وأما الياء، فهي صوت متوسط فيه بعض الرخاوة، أي أنه ينطق بشيء من الاحتكاك(٥٢).

وعلى هذا فمن السهل أن يحدث تطور الجيم إلى الياء، ولا سيما أن الياء أسهل منها، وإن كان هذا لم يمنع من حدوث العكس، كما هو الحال في ظاهرة (العجعجة)، ومن المواضع التي جاءت في الاستعمال العربي الفصيح:

- جاء في لسان العرب: «الإجَّلُ: لغة من الإيَّل، وهو الذكر من الأوعال، ويقال: هو الذي يسمى بالفارسية (كوزن)(٥٣) وأميل إلى عدّ الجيم أصلاً والياء تطوراً عنها لما يقتضيه قانون السهولة والتيسير من طبيعة ميالة إلى عدّ الأسهل تطوراً عن الأصعب.

- وجاء في اللسان أيضاً: «بعير أزجم: لا يرغو، وقيل: هو الذي لا يفصح بالهدير، وقد يقال بالسين، الأحمر: بعيرٌ أزْيَمُ، وأسجمُ، وهو الذي لا يرغو، قال شمر: الذي سمعته بعير أزجمُ، قال: وليس بين الأزيم والأزجم إلا تحويل الياء جيماً، والعرب تجعل الجيم مكان الياء؛ لأن مخرجهما من شجر الفم، وشجر الفم الهواء وخرق الفم الذي بين الحنكين»(٥٤).

وما أرجّحه هنا هو أن الجيم الأصل وليس الياء.

- وجاء في مادة (يضض): «يضَّضَ الجرو مثل: جصص، وفصَّح، وذلك إذا فتح عينه... يصص ويضّض، وجصّص بمعنى واحد، لغات كلها»(٥٥).

- كما روت لنا المعاجم كثيراً من المواد التي تعاقبت فيها الياء الجيم، مما يدل على إمكانية حدوث

التبادل بينهما، فقد جاء في اللغة أن الخَسِيجَ والخَسيَّ على البدل: كساء أو خباء يُنْسج من ظليف عنق الشاة(٥٦).

و"الصهريج: واحد الصهاريج، وهي الحياض يجتمع فيها الماء، وأصله فارسي، وهو الصّهريّ على البدل"(٥٧).

و"قول العرب: ما بالدار دبّيجٌ بالكسر والتشديد، أي: ما بها أحد، وما في الدار سَفَرٌ ولا دبَّج ولا دبّيج، ولا دبّيّ، ولا دَبيٌّ"، فالجيم في هذين المثالين مبدلةٌ من الياء من وجهة نظر المَعجميين العرب(٥٨)، وإن كنا نفضل أن تكون الياء مبدلة من الجيم لسهولتها وصعوبة الجيم النسبية.

وقال الدكتور رمضان عبدالتواب: "ولهذا السبب (أي للتقارب بين الجيم والياء) لا نعجب حين نرى الصوتين يتبادلان في اللهجات العربية القديمة والحديثة، فهذه هي العجعجة عند قضاعة، وهي إبدال الياء جيماً، وهناك عكس هذه الظاهرة، وهو إبدال الجيم ياء.. وهذه الظاهرة تشيع في عصرنا الحاضر، في بعض قرى العراق وبعض بلدان الخليج العربي، إذ يقولون في (مسجد) مثلا: (مَسْيد) وفي (دجاج): (دياي) وغير ذلك»(٥٩).

كما حفظت لنا كتب الإبدال كثيراً من الأنماط التي تعاقبت فيها الياء والجيم، مثل: العشيّ والعشج والبرنيُّ والبرنج وكندي وكندج، وحجتي وحجّتج، ولا أفعل ذلك يد الدهر وجدا الدهر وغيرها(٦٠).

وأكثر هذه الأمثلة الأخيرة فيها إبدال الياء جيماً وهو عكس ما نرى من أمثلة نرجّح فيها أن يكون الأصل بالجيم.

التداخل في الصفات بين الجيم المفردة والقاف المجهورة ودوره في تشكيل بنية الكلمة

صوت القاف عند القدماء صوت أقصى حنكي (back velar) مجهور(٦١)، ويتم نطقه بأن يندفع الهواء من الرئتين حتى موضع اللهاة التي تكون مرتفعة لتغلق مجرى الأنف، ويكون أقصى اللسان مرتفعاً أيضاً، وملاصقاً لأقصى الحنك الليّن، (أقرب ما يكون إلى اللهاة)، فيتمّ حجزه فترة وجيزة، ثمّ ينخفضُ اللسان، فينطلق الهواء بصوت القاف(٦٢).

وعلى الرغم من وصفه عند القدماء بالجهر، فإنّ الدراسات الحديثة تصفه بأنّه صوت لهويّ مهموس(٦٣).

وعلى هذا، فالفرق بين وصف القدماء والمعاصرين كان في المخرج، والجهر والهمس، ويمكن أن نعيد السبب في هذا الخلاف بين الفريقين إلى أنّ للقاف ألوفونين (أي أنّ له صورتين صوتيتين في الواقع الاستعمالي الفعلي المنطوق)، إحداهما تمثّل الصورة المجهورة التي وصفها القدماء، وما زلنا نسمع هذه الصورة إلى يومنا هذا في اللهجة اليمنية حتّى عندما يستعملون العربية الفصحى، كما نسمعها في اللهجات العربية البدوية ولهجات الأرياف في أغلب مناطق الوطن العربي، وأمّا الألوفون الثاني، فهو الصورة الصوتيّة المهموسة، وهي التي استقر عليها النظام الصوتي للعربية الفصحى، واتخذها شعاراً وحيداً له، وهو الصوت الذي وصفه المعاصرون.

وما يمكن أن نقوله في هذا الصدد، هو أنّ القاف بصورتها التي وصفها القدماء، لا تختلف عمّا يحدث عند نطق الجيم المفردة الخالية من التعطيش، إلا اختلافاً يسيراً، إذ لا يختلف نطق القاف التي نسمعها الآن في الأوساط البدوية والريفية في كثير من مناطق الشام والعراق وجزيرة العرب وأجزاء من مصر وغيرها، عن نطق الجيم في استعمال أهل القاهرة لصوت الجيم، ويبدو أنّ هذا الازدواج قد وجد في اللغة العربية في وقت تدوينها، ولذا، فقد جاءت فيها بعض الأنماط الاستعمالية على صورتين، إحداهما بالقاف (وهي المجهورةبلا ريب) وأخرى بالجيم المركّبة، (بعد انتقال صورة الجيم المفردة إليها)، وهذا الحكم بأنّها هي المجهورة ينطلق من أنّ القاف بصورتها المهموسة، بعيدة عن الجيم من حيث المخرج والصفة، ومن هذه الأنماط الصور الاستعمالية الآتية:

- يقال: قوّبته بالسوط وجوّبته، إذا قطعته(٦٤).

- ويقال: انباقت عليهم بائقة شرّ، وانباجت، أي: انفتقت(٦٥).

- والرَّدَقُ: لغة في الرَّدَج، وهو عقْيُ الجدي(٦٦)، أي ما ينفيه ويرميه ويخرجه. وقد جاء في هذا الموضع أيضاً أنّ الشَّيْرَقَ لغة في الشَّيْرَجِ.

- والمزلاق: مزلاج الباب، أو لغة فيه، وهو الذي يغلق به الباب ويفتح بلا مفتاح(٦٧).

- ويقال للحانوت: كُرْبَجُ وكُرْبَقُ وقُرْبَقُ، وهوفارسيّ معرَّبٌ (٦٨)، وكثيراً ما تتصرّف العربية بالكلمات المعرّبة بما يوافق نظامها اللغوي، ويبعدها عن النظام اللغوي الذي استعيرت منه الأنماط المعرّبة.

- والكَوْسَقُ هو الكَوْسَجُ أيضاً(٦٩). وهو معرّبٌ أيضاً.

- ورُوِيَ عن الليث أنّ المالق هو الذي يُمَلِّسُ الحارث به الأرض، ويقال لمالج الطّيَّان مالقٌ ومملقة، كما يقال : ولدت الناقة، فخرج الجنين مليقاً من بطنها، أي لا شعر عليه، والمَلَقُ: الملوسَةُ، وقال الأصمعي: الجنين مليطٌ بالطاء، بهذا المعنى(٧٠).

- كما جاء في لسان العرب أيضاً أنّه يقال: اقْتَتَّت، أي: اجتثَّت، ويقال: اقْتُثَّ واجْتُثَّ، إذا قُلِعَ من أصله، واقْتَثَّ حجراً من مكانه، إذا اقتلعه(٧١).

- وجاء في بعض الاستعمالات اللغوية المروية عن العرب: الألقاف: جوانب البئر والحوض، مثل الألجاف، والواحد منهما: لَقَفٌ ولَجَفٌ(٧٢).

- والقريث لغة في الجريث، وهو نوع من أنواع السمك(٧٣).

- والنَّقَفَةُ كالنَّجَفَة، وهي وُهَيْدَةٌ صغيرةٌ تكون في رأس الجبل أو الأكَمَة(٧٤).

- والقَصَّةُ والقصَّةُ والقَصُّ هو الجَصُّ في لغة الحجازيين كما أشار ابن منظور، وقيل هي الحجارة من الجَصّ، وقد قَصَّص داره، أي جصّصها، ومدينة مُقَصّصة: مطلية بالقَصّ، وكذلك قبرٌ مقصّصٌ، والتقصيصُ هو التجصيص(٧٥).

-العزجُ هو الدفع، وقد يُكَنَّى به عن النكاح، ويقال: عزج الأرض بالمسحاة، اذا قلبها، كأنّه عاقب بين عَزَقَ وعَزَجَ(٧٦).

وقد ذكرنا سابقاً أننا نعتقد بأصالة النطق المفرد لصوت الجيم، انطلاقاً من مثل هذه الأمثلة، ذلك أنّ القاف المجهورة تكاد تكون متطابقة مع الجيم المفردة الخالية من التعطيش، ولهذا فقد تداخل النطقان، مما أدّى إلى وجود كلمتين متقاربتين في اللفظ (الفارق بينهما أنّ إحداهما جاءت بالجيم والأخرى بالقاف) كما أنّهما متفقتان في المعنى أو أنّه يمكن التقريب بينهما من حيث الدلالة.

وبهذا نكون قد أتينا على ما يمكن أن نقوله بخصوص صوت الجيم، وما طرأ عليه من تحوّلات تاريخية أدّت إلى إغناء المعجم العربي، أو قل إلى توسعته، عن طريق إدخال كلمات جديدة تراوحت بين الجيم المفردة والجيم المركّبة، والكاف والقاف والياء.

وبهذا أكون قد أتيت على ما يمكن أن يقال في هذا المقام، من وجهة نظري التي أرجو الله العظيم أن تكون مقبولة.

الهوامش

١- سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٤.

٢- المرجع السابق، ٤/ ٤٣٤.

٣- كمال بشر، الأصوات اللغوية، ص٩٠، وانظر ص١٢٥-١٢٦.

4- Leslau. W. , Comparative Dictionary of Ge<ez, P.216.

5- Ibid, P.195.

6- Ibid, P.197.

7- Ibid, P.199.

8- Dillmann, A., Ethiopic Grammar, P. 49.

9- Ibid, P.245.

١٠- علي العناني: الأساس في الأمم السامية، ص٣٢٦.

11- Lambdin, T., Introduction to Biblical Hebrew. P 101 & Harrison, R, Biblical Hebrew, P. 100.

12- Gesenius, A Hebrew & Englich Lexcion... , .

13- Ibid, P. 150, & Gesenius, Hebrew & Chaldee Lexicon... , P. 157.

14- Costaz, L. Syriac Englsih Dictionary, P. 42.

15- Ibid, P.41.

16- Ibid, P.41.

17- Ibid, P.45.

١٨- عامر سليمان، اللغة الأكدية، ص٣٥١.

١٩- المرجع السابق، ص٣٦١.

٢٠- المرجع السابق، ص٣٦٥.

٢١- مصطلح اللغات السامية مصطلح غير علمي، وهو توراتي المنشأ، إذ تنسب مجموعة من الشعوب إلى سام بن نوح، وقد اتّخذ هذا المصطلح للتعبير عن مجموعة اللغات التي ذكرت التوراة أن شعوبها الناطقة بها هم أبناء سام بن نوح، وقد سميت بتسميات أخرى، كاللغات العربية، أو لغات الجزيرة العربية، وهذه المصطلحات بمجملها غير دقيقة لإطلاقها على اللغات مجتمعة.

٢٢- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٢٥٩.

٢٣- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص٣٣٦.

٢٤- ابن منظور، لسان العرب، (كبه) ١٣/ ٥٣٣.

٢٥- المرجع السابق، (جبل) ١١/ ٩٩.

٢٦- المرجع السابق، (جفر) ٤/ ١٤٤و (كفر) ٥/ ١٤٩.

٢٧- ابن خالويه، رسالة في أسماء الريح، ص ٣٠، ٣١، وانظر لسان العرب، (سهج) ٢/ ٣٠٢.

٢٨- المرجع السابق، (عثلط) ٧/ ٣٤٩، و (عجلط) ٧/ ٣٤٩ و (عكلظ) ٧/ ٣٥٣.

٢٩- المرجع السابق (هوك) ١٠/ ٥٠٨ و (هوج) ٢/ ٣٩٤.

30- Roach, English Phonetics & Phonology..., PP. 28-29.

٣١- سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٢.

٣٢- رمضان عبدالتواب، التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، ص١٣٢.

٣٣- ماريو پاي، أسس علم اللغة، تعريب أحمد مختار عمر، ص١٤٤.

٣٤- رمضان عبدالتواب، التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، ص١٣٢.

٣٥- ابن منظور، لسان العرب (أجل) ١١/ ١١، وانظر لسان العرب أيضاً (أول) ١١/ ١٣.

٣٦- المرجع السابق، (دشش) ٦/ ٣٠٢.

٣٧- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/ ٢٧٣.

٣٨- الأزهري، تهذيب اللغة (دشش)، وانظر لسان العرب (دشش) ٦/ ٣٠٢.

٣٩- ابن مكي، تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص٩٢، وابن أيبك الصفدي، تصحيح التصحيف، وتحرير التحريف، ص١٨٢.

٤٠- ابن منظور، لسان العرب (دعظ) ٧/ ٤٤٤.

٤١- المرجع السابق، (جغظ) ٧/ ٤٣٨.

٤٢- المرجع السابق، (عده) ١٣/ ٥١٤.

٤٣- رمضان عبدالتواب، التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، ص٢٥.

٤٤- سيبويه الكتاب، ٤/ ٤٣٢.

٤٥- كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات اللغوية، ص٩٠.

46- O'Connor, Better English Pronounciation. P. 35 & Roach, P. 40. & Al-Ani, S. Arabic, Phonology, P. 32.

٤٧- ابن منظور، لسان العرب (دمج) ٢/ ٢٧٤.

٤٨- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٤٣٦.

٤٩- ابن منظور، لسان العرب، (جأجأ)، ١/ ٤١-٤٢.

٥٠- المرجع السابق، (شسأ) ١/ ٩٩.

٥١- المرجع السابق (حنش) ٦/ ٢٨٩.

٥٢- رمضان عبدالتواب، فصول في فقه العربية، ص١٣٢، وانظر: بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٤٨.

٥٣- ابن منظور ، لسان العرب (أجل) ١١/ ١١ و (عبس) ٦/ ١٢٩ وانظر: أبو الطيب اللغوي، الإبدال، ١/ ٢٥٩.

٥٤- المرجع السابق، (زجم) ١٢/ ٢٦٢، و (زيم) ١٢/ ٢٨٠.

٥٥- المرجع السابق (يضض) ٧/ ٢٥٢ وانظر (بضض) ٧/ ١١٩ و (يصص) ٧/ ١٠٩.

٥٦- المرجع السابق (خسج) ٢/ ٢٥٥.

٥٧- المرجع السابق (صهرج) ٢/ ٣١٢ وأبو الطيب اللغوي، الإبدال، ١/ ٢١١.

٥٨- المرجع السابق (دَبَحَ) ٢/ ٢٦٢.

٥٩- رمضان عبدالتواب، فصول في فقه العربية، ص١٣٢-١٣٣.

٦٠- أبو الطيب اللغوي، الإبدال، ١/ ٢٥٧-٢٦١، وانظر: ابن السكيت، الإبدال، من ٩٥-٩٦.

٦١- سيبويه، الكتاب ٤/ ٤٣٤، وانظر:

Ashraf, M. Arabic Phonetics, Ibn, Sina's Risalah.. (1963). P. xiv.

٦٢- يحيى عبابنة، النظام اللغوي للهجة الصفاوية، ص١٣٥.

٦٣- كمال بشر، علم اللغة العام، الأصوات اللغوية، ص١٠٩، وانظر:

Al-Ani, s., Arabic Phonology, P. 32.

٦٤- ابن منظور، لسان العرب، (بنق) ١٠/ ٢٩.

٦٥- المرجع السابق، (بوق) ١٠/ ٣٠.

٦٦- المرجع السابق، (ردق) ١٠/ ١١٤.

٦٧- المرجع السابق، (زلق) ١٠/ ١٤٤.

٦٨- المرجع السابق، (قربق) ١٠/ ٣٢٣، وانظر (كربج) ٢/ ٣٥٢.

٦٩- المرجع السابق، (كسق) ١٠/ ٣٢٦.

٧٠- المرجع السابق، (ملق) ١٠/ ٣٤٩.

٧١- المرجع السابق، (قعف) ١٠/ ٢٨٧، وانظر (قثث) ٢/ ١٧٧.

٧٢- المرجع السابق، (لقف) ٩/ ٣٢١.

٧٣- المرجع السابق، (قرث) ٢/ ١٧٨.

٧٤- المرجع السابق، (نقف) ٩/ ٣٣٩.

٧٥- المرجع السابق، (قصص) ٧/ ٧٧.

٧٦- المرجع السابق، (عزج) ٢/ ٣٢٣.